

هناك خلافة

تأليف

إلى عثمان عمرو بن محمد الجاحظ

قراه وعلق عليه

أبو حذيفة

أبو حذيفة بن محمد

دار الكتاب العربي



هَذَا سَبْخُ الْخَلَاقِ

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

قرأه وعلق عليه

أبو حذيفة

أبو حذيفة

دار الصحابة للنوازل

للنشر والتحقيق والتوزيع

ت: ٢٢١٥٨٧ - ص: ٤٧٧

كتاب قد حوكم درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً
حقوق الطبع محفوظة
لناشر

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
شارع المديرية - امام محطة بنزين التعاون
ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ « آل عمران : ١٠٢ » .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ « النساء : ١ » .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ « الأجزاء : ٧٠ » .

الجاحظ

لم نجد مانزين به مقدمة رسالتنا إلا ماكتبه علامه عصره / عبد السلام هارون رحمه الله . فقد قال عن بيان الجاحظ :

وبعد فالجاحظ إمامٌ فذٌ من أئمة البيان في العربية ، وليس من الإبراف والمغالة أن نعدّه زعيم البيان العربيّ ، نطلق القول في ذلك إطلاقاً .
هو زعيمُ للبيان العربيّ في قوته وأسره ، وفي دقّته وصحته ، وحلاوته وجماله وفنه .

كان الجاحظ زعيماً للبيان العربيّ ، وهو كذلك أحد زعماء المكتبة العربيّة ، التي كانت في الصدر المقدّم من مكتبات الدنيا ، فيما أسدت للإنسانية والفكر العربيّ واللسان العربي من خير ، وما بسطته على ظلام المدينيات المتهافته من نور .

عصر الجاحظ

كان الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية : عصر هارون والمأمون والعلوم والآداب والفنون يومئذٍ تزخر بها معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة ، وسائر عواصم الإسلام ، وكان المعين فياضاً مترعاً ، والعقول في نشاط وفوره والتأليف والترجمة لها دوي النحل في كلّ صقّ . الدّينُ يدعو إلى العلم والنُّور ، والمالُ تلمع وجوهه في عيون أهل الفضل ، فيُذكي العزائم ، وتُبرم العقّد .

والعلم ولود ، وصاحبُه كلّما ارتوي منه عادَ به في سبيل الظمّ ، وحيثما شبع منه رجع به في سبيل الجوع .

« منحى الجاحظ في التأليف »

صنع الجاحظ هذه الكتب جميعاً . ولم يكن هُـمّه هم غيره من المؤلفين ، في الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان وُكْدُهُ أن يبتكر وأن يَطرِف ، وأن يَخْلُق للناس بديعاً ، يسمح على جميعها بالدُّعابة والهزل ، ويُشيع الفكاهة في أُنشاء الكلام .

فجمع بذلك قلوب القارئین إليه . واستولى منهم بذلك على شَتَى ميولهم إلى ما يكتب ، فصَبَوْا إليه وأغرموا به غرماً ! .

وطرق الجاحظُ في كتابته أبواباً عجيبية ، وتقرب إلى العامة ، وحرص أشد الحرص على استرضائهم ، ولم ينس في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف العالية ، والسياسات الرفيعة . أ. هـ .

حياته ومولده :

هو أحد أعلام الكتابة والتأليف في العصر العباسي الثاني ، ورأس المدرسة النثرية الثانية اسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، وكنيته أبو عثمان ، ولقبه الجاحظ .

ولد بالبصرة حوالي سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٥ م .

ولعه بالدرس :

أولع بالعلم منذ صغره ، فذهب إلى الكتاتيب ، ولكنه لم يستطع أن يتفرغ للعلم بسبب فقره ، فكان يكتري دكاكين الوراقين « أصحاب المكتبات » في الليل ليطالع ما فيها من كتب ، ويعمل في النهار لتحصيل قوت يومه . وكثيراً ما كان حب الدرس والمطالعة يستبد به فيقعد عن العمل منصرفاً إلى الكتب .

حضوره حلقات العلم .

أتيح للجاحظ بسبب نشأته في البصرة ، أن يختلف إلى حلقات المساجد حيث كان يجتمع الأدباء واللغويون والرواة وأصحاب الكلام للبحث في القضايا التي جد فيها الجدل ، فألم بثقافة عصره ، ولم يترك مجرى من مجاري الحياة العقلية فيه إلا أقبل عليه إقبال شغف متلهف حتى كاد يستنفد علوم العرب والعجم .

مخالطته الناس :

وكان إلى جانب ذلك كثير الاختلاط بالناس يعاشر صغارهم وكبارهم وفقراءهم وأغنياءهم وكل طبقة منهم ، فأفاده ذلك خبرة واسعة وتجارب نادرة ، وكان يختلف إلى المربد سوق البصرة ويتلقى اللغة والأدب عن الأعراب مشافهة فغزرت لذلك ألفاظه وقويت لغته .

ثقافته :

أودع الجاحظ خزائن الأدب العربي مجموعة من المؤلفات البارزة ، وقد تنوعت بين العلم والأدب والاجتماع ، وتناولت بالبحث أمور الدين والطبيعة والعوالم والمخلوقات حية كانت أو جامدة ، وكتب في الأخلاق والعادات والطبائع والأجناس ، فكان له حشد وفير من الكتب . فمن هذا النتاج الضخم ، وتنوع موضوعاته نستطيع أن نكون فكرة وافية عن هذا الأديب وعطاءه ، وأن نتعرف خصائص أدبه وخطوطه العامة ، وأن نتبين عمق ثقافة الجاحظ وسعة معلوماته ، وإنه لمن المدهش حقاً أن يعي هذا الرجل في عقله مجمل ما وصل إليه فكر العرب والعجم آنذاك وأن يلم بمختلف فروع المعرفة ، من أدب وفلسفة وتاريخ ، إلى علوم طبيعية ورياضية وكيمائية ، إلى الأديان ومتفرعاتها ، والمجتمعات وأحوالها ، والبلدان وأقاليمها وخصائصها ، حتى لكان الجاحظ بثقافته الموسوعية ، دائرة معارف حية ، تضم إلى محتوياتها كل ماتقع عليه من حقائق الكون والناس والحياة .

ولعل ذلك يعود إلى عوامل أهمها : طول عمره وصبره الدائب على تحصيل

العلوم ، ونبوغه ومواهبه الجمة ، وبيئته التي وفرت له العلم والمعلمين .
أما نبوغ الجاحظ ، فظاهر في ذكائه ومقدرته على الاستيعاب ، وفي قوة ذاكرته وكثرة فضوله العلمي ، وفي دقه ملاحظته وسعة نظره إلى الفوراق ، كما هو ظاهر في قوة خياله ، وسلامة منطقته ، وقدرته على الحاجة والإقناع وتوليد الأفكار .

وقد تمثل الجاحظ ثقافات متنوعة كثيرة ، ومزج بينها مزجاً غريباً ، ومهرها بطوابع من شخصيته ثم أخرجها في كتبه حية موحدة الروح ، ملونة بألوان من فكاهته وظرفه ، وحسن اختياره للموضوعات المناسبة . فإذا أنت قرأت كتبه ، خيل إليك أنك في معرض من المعرفة ، حوى خلاصة ما اجتمع في عصر المأمون ، وهكذا كانت كتب الجاحظ غنية ، مليئة بما يمكن أن يستفيد المطالع منه ، إلى متعة قلما توافرت لكاتب في عصره .

هذه الرسالة

قام بنشر هذه الرسالة من قبل الأستاذ / محمد كدر علي رئيس المجمع العلمي العربي في سنة ١٣٤٢ - ١٩٢٤ بدمشق .

وقد قدم لهذه الرسالة فقال : قد أسعدني الحظ مؤخراً بالعثور في جملة المخطوطات التي دخلت خزانة المجمع العلمي العربي في دمشق على مجموع لطيف من قطع الربع فيه عدة رسائل منها « كتاب تهذيب الأخلاق » للجاحظ وهو الذي أغتبط اليوم بنشره .

أما عن صحت نسبة هذه الرسالة للجاحظ فقد قال « كارل بروكمان » ما ملخصه في كتابه « تاريخ الأدب العربي » [٣ / ١٢٨] انه قد قام بنشرها « محمد كرد علي » بدمشق ، وهي بحسب مضمونها وأسلوبها ليست من تصنيف الجاحظ والظاهر أنها « لعدى بن يحيى » والذي نُشر الكتاب بأسمه قبل ذلك في القاهرة ، كما نُشر أيضاً باسم يحيى الدين بن عرى انظر مجلة المجمع العلمي العربي ٤ : ٣٤٦ أ . هـ » .

ولقد كتب كتاب تهذيب الأخلاق بخط جميل وجاء في آخره « وكان الفراغ من تنقيحه ، بحمد الله تعالى وتوفيقه ، على يد العبد الضعيف ، فقير رحمة ربه ، وأسير وصحة ذنبه ، يوسف معتوق الخواجا تاج الدين البعلبكي غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، وشفاه من ذنوبه العيوب ، وسقاه من ذنوب الغيوب ، بنة وعينه ، وحلمه وكرمه ، في أواخر جمادى الآخرة من شهر سنة ١٠٤٧ هـ » .

والرسالة قليل تحريفها تغلب عليها الصحة وفي كل صفحة منها ١٤ سطراً وفي كل سطر نحو ١٠ كلمات .

خلت جريدة كتب الجاحظ من رسالة اسمها تهذيب الأخلاق بل جاء فيها كتابان بهذا المعنى الأول (أخلاق الملوك) والثاني (كتاب السلطان وأخلاق أهله) وكلا الاسمين ينطبقان على موضوع كتابنا أكثر من انطباقهما على كتاب التاج الذي نشره صديقي أحمد زكي باشا ، ولا بد أن ينظر الباحثون من العلماء في تحقيق اسم كتاب تهذيب الأخلاق تحقيقاً مشفوعاً باستقراء النصوص لا بالاستنتاج فقط وأن يبينوا عين الصواب في تسمية كتاب التاج الذي خلّت كتب مؤلفنا من سفر له بهذا العنوان .

وحري بكتاب تهذيب الأخلاق بما فيه من الكلم الطيب أن يتصفحة بل يتدارسه العالم والمعلم والمتعلم ، فقد حوى من ضروب التعليم والإرشاد، مالا يستغني عنه أرباب العلم أ . هـ .

☆ ولما كان من النادر توفير مثل هذه الرسالة على القاريء حيث أن طبعها الأولى قد طبعت منذ عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م وفي دمشق .

رأينا أن نعيد نشرها وإخراجها من جديد وكان عملنا فيها :

إبراز موضوعاتها بإضافة عناوين جديدة .

أبو حذيفة إبراهيم بن محمد

هَذَا سَبِيلُ الْإِسْلَامِ

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

دار الصحابة للنوازل

للنشر والتحقيق والتوزيع

ت: ٣٣١٥٨٧ - ص: ٤٧٧

كتاب تهذيب الأخلاق للعامة الجاحظ تغمده الله برحمته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

اعلم إن الإنسان ، من بين سائر الحيوان ، ذو فكر وتمييز ، وهو أبداً يحب من الأمور أفضلها ، ومن المراتب أشرفها ، ومن المقتنيات أنفسها ، إذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه .

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ولم يرضَ بالتقصير عن نهاية تمامه وكاله ، ومن تمام الإنسان وكاله ، أن يكون مرتاضاً بكارم الأخلاق ومحاسنها ، ومنزهاً عن مساوئها ومقابحها ، آخذاً في جميع أحواله ما بين الفضائل ، عادلاً في كل أفعاله عن طرق الرذائل .

وإذا كان ذلك كذلك ، كان واجباً على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شية سليمة من المعايير ، ويصرف همه إلى اقتناء كل خير^(١) كريم خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة ، ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلأته ، ويكتسي حلل الجمال بدمائة شمائله ، ويباهي بحق أهل السؤدد والفخر ، ويلحق بالذرى من درجات النباهة والمجد .

إلا أن المبتدئ بطلب هذه المرتبة ، والراغب في بلوغ هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه خلال المستحسنة التي يعنيه تحررها ، ولم تتميز له من المستقبحة

(١) الخيم بالكسر السجية والطبيعة .

التي غرضه توقيها .

فمن أجل ذلك وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه ما الخلق وما علته ، وكم أنواعه وأقسامه ، وما المرضي منها ، المغبوط صاحبه ، والمتخلق به ، والمستثنى منها ، المقوت فاعله ، والمتوسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة سنية ، تسو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبيّة تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

وندل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للمرتاض به ديدناً وعادة وسجية وطبعاً ، ليهتدي به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادة الرديئة وأنس بها .

ونصف أيضاً الإنسان التام المذهب الأخلاق ، المحيط بجميع المناقب الخلقية ، وطريقته التي يصل بها إلى التام ، ويحفظ عليه الكمال ، ليشتاقي إلى صورته ، من تشوّف إلى الرتبة العليا ، ويحنّ إلى احتذاء سيرته ، من استشرّف للغاية القصوى .

وقد ينتبه أيضاً بما نذكره ، من كانت له عيوب قد أشبهت عليه ، وهو مع ذلك يظن أنه في غاية الكمال ، فإن من هذه حاله ، إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة ، تيقظ لما فيه من ذلك ، وأنف منه ، واجتهد في تركه والتزّه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق الحمودة من كان جامعاً لأكثرها ، عادماً لبعضها ، قرّم^(١) إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له ، وتاقت نفسه

(١) القرم محرّكة شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق إلى كل شيء .

إلى الأحاطة بجميعها ، وقد ينتفع بما نذكره أيضاً من كان في غاية الكمال والتام ، فإن المهدّب الأخلاق ، الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هي عادته وسجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبة ، وفرحة مبهجة ، كما أن المدوح يسر إذا ذكر المادح محاسنه ، ونشر فضائله .

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب ، موصوفة بالحسن ، كان ذلك داعياً إلى الاستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

وهذا حين بدئنا بذكر الأخلاق فنقول :

[الفصل الأول]

في تعريف الخلق - وأقسامها - وتأثيرها بالنفوس

الخلق

[تعريفها - أقسامها]

إن الخلق هو حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية لا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمّل ، كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق الحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك ، فمنهم من يصير إليه بالرياضة ، ومنهم من يبقى على عادته ، ويجري على سيرته .

[الأخلاق المذمومة]

فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبلخل والجبن والظلم والتشعر ، فإن هذه العادات غالبية على أكثر الناس ، مالكة لهم بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب ، ولكنهم يتفاضلون في ذلك .

وكذلك في الأخلاق المحمودة ، قد يختلف الناس ويتفاضلون ، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً والمبغضون لها (؟) .

فأما المجبولون على الأخلاق السيئة ، فأكثر الناس لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر^(١) ، وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبيعه ، ولم يستعمل الفكر ولا التمييز ، ولا الحياء ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم ، بالفكر والتمييز ، فإذا لم يستعملها كان مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستفزه والسكينة غير حاضرة له ، والحرص والاحتشاد ديدنه ، والشره لا يفارقه .

فالناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة . منقادون للشهوات الدنيئة ، وكذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسُّنن ، والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحسني السيرة ، ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصبه ، ويعاقبوا الفاجر على فجوره ، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره .

(١) بل هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما في الحديث « أن الإنسان يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

[التمييز والأخلاق المكروهة]

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس ، إلا أن فيهم من يتظاهرها ، وينقاد لها . وهم شرار الناس وفيهم من ينبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز ، على قبحها ، فيأنف منها ، ويتصنع لاجتنائها ، وذلك يكون عن طبع كريم ، ونفس شريفة .

وفيهم من لا ينتبه لذلك ، إلا أنه إذا نُبه عليه أحسَّ بقبحه ، فربما حمد نفسه على تركه .

وفيهم من إذا تنبه لما فيه من النقائص . أو نُبه عليها . ورام العدول عنها . تعذر عليه ذلك . ولم يطاوعه طبعه . وإن كان مؤثراً للعدول عنها . مجتهداً في ذلك .

وهذه الطائفة تحتاج أن تُرشد إلى طريق التدرب والتعمل للعادات الحمودة . حتى تصير إليها على التدرج .

ومن الناس من ينتبه على ^(١) الأخلاق الرديئة . أو ينبه عليها . فلا يحنُّ إلى تجنبها . ولا تسمح نفسه لمفارقتها . بل يؤثر الإصرار عليها . مع علمه برداءتها وقبحها .

وهذه الطائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلا بالقهر والتخويف والعقوبة إن لم يردعها الترهيب .

فأمَّا الأخلاق الحمودة . فإنها وإن كانت في بعض الناس غريزة . فليست في جميعهم . وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة ويترقوا .

(١) لعله ينتبه إلى .

إليها بالاعتیاد والإلف ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة . ولا الخلق الجمیل وذلك يكون لرداءة جوهره . وخبث عنصره .

وهذه الطائفة من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم . وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة وينبو طبعه عن بعضها . وليس يعد هذا شريراً . ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه .

أ تأثير الأخلاق بالنفوس أ

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق . فهي النفس . وللنفس ثلاث قوى . وهي تسمى أيضاً نفوساً .

١ - وهي النفس الشهوانية ، ٢ - والنفس الغضبية ، ٣ - والنفس الناطقة وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى .

فمنها ما يختص بإحداهن . ومنها ما تشترك فيه قوتان . ومنها ما تشترك فيه القوى الثلاث . ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان : ومنها ما يختص به الإنسان فقط .

أ أولاً : النفس الشهوانية أ

أما النفس الشهوانية فهي للإنسان ولسائر الحيوان . وهي التي يكون بها جميع اللذات . والشهوات الجسمية . كالقرم إلى المآكل والمشارب والمباضعة . وهذه النفس قوية جداً متى لم يقهرها الإنسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه . فإذا استولت عليه . عسر تهذيبها . وصعب قمعها وتذليلها .

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته . وانقاد لها كان بالبهائم أشبه منه بالناس . لأن أغراضه ومطلوباته وهمة تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات

واللذات فقط . وهذه هي عادة البهائم .

ومن يكون بهذه الصفة يقلُّ حياؤه . ويكثرُ خرقه . ويستوحش من أهل الفضل . ويميل إلى الخلوات . وينقبض عن المجالس الحفلة . ويبغض أهل العلم . ويشنأ أهل الورع والنسك . ويود أصحاب الفجور . ويستحب الفواحش . ويكثر ذكرها ويلذُّ استماعها . ويسر بمعاشرة السفهاء . ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو . وقد يصير من هذه حاله إلى الفجور . وارتكاب الفواحش . والتعرض للمحظورات . وربما دعت به محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها . وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص والخيانة . وأخذ ما ليس له بحق . فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض . فحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها . جسّرت شهوته على اكتسابها من غير وجوهها .

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد . فهو أسوأ الناس حالاً . وهو من الأشرار الذين يخاف خبثهم . ويستوحش منهم . ويستروح إلى البعد عنهم . ويصير واجباً على متوليّ السياسات تقويمهم وتأديبهم . وإبعادهم ونفيهم . حتى لا يختلطوا بالناس . فإن في اختلاط من هذه صفته بالناس . مضرة لهم . وخاصةً لأحداهم . فإنّ الحدث سريع الانطباع . ونفسه مجبولة على الميل إلى الشهوات . فإذا شاهد غيره مرتكباً لها . مستحسناً للانهاك فيها . مال هو أيضاً إلى الاقتداء به وإلى مساعدة لذته .

[قهر النفس الشهوانية]

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها . كان ضابطاً لنفسه . عفيفاً في شهواته . محتشماً من الفواحش متوقياً من المحظورات . محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات .

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم . وعفة بعضهم . وفجور بعضهم . هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية . فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة . كان صاحبها عفيفاً . ضابطاً لنفسه ، وإذا كانت مهملة مرسلّة . مالكة لصاحبها كان صاحبها فاجراً شريراً . وإذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة . كرتبتها في التأدب .

[علاج النفس الشهوانية]

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكةا فيستعملها في حاجاته التي لاغنى عنها ويكفها عما لا حاجة به إليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة .

[ثانياً النفس الغضبية]

فأما النفس الغضبية فيشارك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان وهي التي بها يكون الغضب والجرأة ومحبة الغلبة .

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضرّ لصاحبها إذا ملكته وانتقاد لها فإن الإنسان إذا انتقاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر خرقه واشتد حقه وعدم حلمه ووقاره وقويت جرأته وتسرع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بغضبه والوثوب بخصومه فأسرف في العقوبة وزاد في التشقي فأكثر السبّ وأفحش فيه .

فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبه منه بالناس وربما حمل قومًا على حمل السلاح وربما أقدموا على القتل والجراح وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخدّهم عند الغضب من السير من الأمور وربما غضب من هذه حاله ولم يقدر على الانتقام من خصمه فيعود

بالضرر والسبِّ والألم على نفسه : فمنهم من يلطم وجهه وينتفح لحيته ويعض يده ويسبُّ نفسه ويذكر عرضه .

[من آثار النفس الغضبية]

وأيضاً فإنَّ من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة متوثباً على من آذاه مقدماً على كل من ناوأة طالباً للتروؤس من غير وجهه فإذا لم يتمكن من الرئاسة من وجهها توصل إليها بالحيل الخبيثة فاستعمل كل ما يمكنه من الشر .

وهذه الأفعال تورط صاحبها وتوقعه في الهاوي والمهالك فإن من وثب على الناس وثبوا عليه ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر . وربما سفه الإنسان على خصمه وكان الخصم أسفه منه فإن ناله بسوءٍ قابله ذاك بأكثر منه .

وقد يغلب على من هذه حاله الحسد والخفة والقحة واللجاج والجور وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الأموال من غير وجهها وأخذها بالغصب والغلبة والظلم وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم وربما فعلوا ذلك من غير روية فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال .

[تأديب النفس الغضبية]

فأما من ساس نفسه الغضبية وأدها وقمعها كان حليماً وقوراً عادلاً محمود الطريقة فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غضبهم وخرقهم وحلهم وسفاهة بعضٍ هو اختلاف أحوال النفس الغضبية : إذا كانت مذلة مقهورة كان صاحبها حليماً وقوراً وإذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها

غضباً سفيهاً ظلوماً غشوماً وإذا كانت متوسطة الحال كان صاحبها متوسط الحال رتبته في الحلم كرتبة نفسه الغضبية في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يروض الإنسان نفسه الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها فإن لهذه النفس أيضاً فضائل محمودة وذلك أن الأنفة من الأمور الدنيئة ومحبة الرئاسة الحقيقية وطلب المراتب العالية من الأخلاق الحمودة وهي من أفعال النفس الغضبية فإذا ملك الإنسان هذه النفس بالتأديب والتهديب واستعملها في الأمور الجميلة وكفها عن الأفعال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة .

[ثالثاً النفس الناطقة]

وأما النفس الناطقة وهي التي بها يتميز الإنسان من جميع الحيوان وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همة فأعجب بنفسه وهي التي بها تستحسن المحاسن وتستقبح القبائح وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوته الآخرين وهما الشهوانية والغضبية ويضبطهما ويكفهما وبها يفكر في عواقب الأمور فيبادر باستدراكها من أولها .

[فضائل النفس الناطقة]

ولهذه النفس أيضاً فضائل ورذائل .

أما فضائلها فإكتساب العلوم والآداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الآخرين وتأديبها وسياسة صاحبها في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرقّة وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة .

[عيوب النفس الناطقة]

وأما رذائلها فالخبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشهر والرياء وهذه النفس هي لجميع الناس إلا أن منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستتر عليها ومنهم من تجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل . وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا بتكلف .

فأما المطبوعُ على العادات الجميلة منها فتكون لقوة نفسه الناطقة وشرف عنصره .

وأما المطبوعُ على العادات المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره وأما الذي تجتمع فيه فضائل ورذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان وأخلاق من يحيط به ويشاهده ويقرب منه وبحسب رؤساء وقته ومن يشار إليه بالنباهة ويغبط على رتبته . فإن الحدث والناشيء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملاسته ومخالطته ومن أبويه وأهله وعشيرته .

فإذا كان هؤلاء سيئي الأخلاق مذمومي الطريقة كان الحدث والناشيء بينهم أيضاً سيئ الأخلاق مكروه العادات وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة ومن فوقه وغبطهم على مراتبهم أثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم .

فإن كانوا مهذبي الأخلاق حسني السيرة كان التشبه بهم حسن الأخلاق مرضي الطريقة وإن كانوا أشراراً جهالاً كان الضابط لهم والسالك طريقهم شريراً جاهلاً .

وهذه الحال هي أخلاق أكثر الناس فإن الجهل والشر والخبث والشره والحسد غالب عليهم والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض ويحتذي التابع أبداً سيرة المتبوع وإذا كان الغيالب عليهم الشر والجهل كان واجباً أن يقتدي أحداهم وأولادهم وتبائعهم بهم .

فاعلة الموجبة لاختلاف أخلاق الناس في سياساتهم وفضائلهم وغلبة الخير والشر عليهم هي اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم : إذا كانت خيرة فاضلة قاهرة للنفسين الباقيتين كان صاحبها خيراً عادلاً حسن السيرة وإذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الآخرين ، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً .

فمن أجل ذلك وجب أن يعمل الإنسان فكره ويميز أخلاقه ويختار منها ما كان مستحسناً جيلاً وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحاً ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار فإنه إذا فعل ذلك صار بالإنسانية متحققاً وللرئاسة الذاتية مستحقاً .

الفصل الثاني

[أنواع الأخلاق وأقسامها]

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها ومالمستحسن منها ومالمستحب اعتياده ويعد فضائل ومالمستقبح منها المكروه ويعد نقائص ومعايب فهي الأنواع التي نحن واصفوها .

أولاً : [الأخلاق الفاضلة]

١ - [العفة]

أما التي تعد فضائل فإن منها العفة وهي ضبط النفس عن الشهوات وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقط واجتناب السرف

والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه ولا يحرس النفس والقوة أقل منه وهذه الحال هي غاية العفة .

٢ - [القناعة]

ومنها القناعة وهي الاختصار على ماسنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك والتقنع باليسير منه . وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم فأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسناً منهم ولا تعد القناعة من فضائلهم .

٣ - [التصون]

ومنها التصون وهو التحفظ من التبذل : فمن التصون التحفظ من الهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والمزح والسخف وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين ولأبهة لمن يسرف في المزح ويفحش فيه .

ومن التصون أيضاً الانتقياض من أدنياء الناس وأصاغرهم ومصادقتهم ومجالستهم والتحرز من المعاش الزرية واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة والترفع عن مسألة الحاجات لئام الناس وسفلتهم والتواضع لمن لا قدر له والإقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار فإن الإكثار من ذلك مخلق . وأعظم الناس قدراً من ظهر اسمه وخفي شخصه .

٤ - [الحلم]

ومنها الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك وهذه الحال محمودة مالم تؤد إلى تلم جاء أو فساد سياسة وهي بالروساء والملوك أحسن لأنهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم ولا يعد فضيلة حلم الصغير عن الكبير وإن كان قادراً على مقابله في الحال فإنه وإن أمسك فإنما يعد ذلك خوفاً لاحتماً .

٥ - [الوقار]

ومنها الوقار وهو الإمساك عن فضول الكلام والعَبَث ، وكثرة الإشارة والحركة ، فيما يستغنى عن التحرك فيه ، وقلة الغضب والإصغاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب ، والتحفظ من التسرع ، والمباكرة في جميع الأمور .

٦ - [الحياء]

ومن قبيل الوقار أيضاً الحياء وهو غش الطرف والانتقاض عن الكلام حشمة للمستحيا منه ، وهذه العادة محمودة مالم تكن عن عي ، ولا عجز .

٧ - [الودّ]

ومنها الودّ هو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبيل ، وذوي الوقار والأبهة ، والمتميزين من الناس ، فأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم والأحداث والنسوان وأهل الخلاعة فكروه جداً : وأحسن الود مانسجته بين منوالين متناسبة الفضائل وهو أوثق الود وأثبتته ، فأما ما كان ابتداءً اجتماعاً على هزل ، أو لطلب لينة ، فليس محموداً ، وليس بياق ولا ثابت .

٨ - [الرحمة]

ومنها الرحمة وهو خلق مركب من الود والجزع ! والرحمة لاتكون إلا لمن تظهر منه لراحه خلة مكروهة ، إما نقيصة في نفسه وإما محبة عارضة . فالرحمة هي محبة للمرحوم ، مع جزع من الحال التي من أجلها رُحم .

وهذه الحال مستحسنة ، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ، فليس بمحمود ، رحمة القاتل عند القود ، والجاني عند القصاص .

٩ - [الوفاء]

ومنها الوفاء ، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويهرن به لسانه ، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفاً به ، فليس يعدُّ وفياً من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلت ، وكلما أضرب به الدخول تحت ماحكم به على نفسه كان أبلغ في الوفاء .

وهذا الخلق محمود ينتفع به جميع الناس ، فإن من عُرف بالوفاء ، كان مقبول القول في جميع ما يعد به . ومن كان مقبول القول ، كان عظيم الجاه ، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخلق أكثر ، وحاجتهم إليه أشد . وأنة متى عُرف منهم قلة الوفاء ، لم يوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم تسكن إليهم جنسهم وأعوانهم .

١٠ - [الأمانة]

ومنها أداء الأمانة وهو التعفف عما يتصرف فيه من مال وغيره وما يوثق به عليه من الأعراض والحرم مع القدرة عليه ، ورد ما يستودع إلى مودعه .

١١ - [كتمان السر]

ومنها كتمان السر وهذا الخلق مركب من الوقار وأداء الأمانة فإن إخراج السر من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول .

وأيضاً فكما أنه من استودع مალأ فأخرجه إلى غير مودعه ، فقد خفر الأمانة كذلك من استودع سرأ فأخرجه إلى غير صاحبه فقد خفر الأمانة . وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب السلطان ، فإن إخراج أسرارهم مع أنه قبيح في نفسه يؤدي إلى ضرر عظيم يدخل عليه من سلطانه .

١٢ - [التواضع]

ومنها التواضع وهو ترك التروؤس ، وإظهار الخمول ، وكرهية التعظيم والزيادة في الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل ، والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر ، وليس يكون التواضع إلا في أكبر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم . وأما سوى هؤلاء فليس يكونون متواضعين لأن الضعة هي محلهم ومرتبته فهم غير متصنعين لها .

١٣ - [البشر]

ومنها البشر ، وهو إظهار السرور بما يلقاه الإنسان من إخوانه وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء ، وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن وإن البشر في الملوك تتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ويزداد به تحببا إليهم وليس سعيداً من الملوك من كان مبغضاً إلى رعيته ، وربما أدى ذلك إلى فساد أمره وزوال ملكه .

١٤ - [اللهجة]

ومنها صدق اللهجة وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به ، وهذا الخلق مستحسن ، مالم يؤد إلى ضرر محف ، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبا. فإنه لا يفي صدقه بما يلحقه في ذلك العار والمنقصة الباقية اللازمة .

وكذلك ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سئل عن جنايته متى صدق عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة .

والصدق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لا يسعهم الكذب مالم يعد الصدق عليهم بضرر .

١٥ - [سلامة النية]

ومنها سلامة النية وهو اعتقاد الخير لجميع الناس ، وتكذب الخبث والغيلة والمكر والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس إلا أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائماً ولا يتم الملك إلا باستعمال المكر والحيل ، والاعتغال مع الأعداء ولكن يحسن لهم استعماله مع أوليائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم .

١٦ - [السخاء]

ومنها السخاء وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق وهذا الفعل مستحسن مالم ينته إلى السرف والتبذير فإن من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لم يسم سخياً بل يسمى مبذراً مضيعاً .

والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة فأما في الملوك فأمر واجب لأن

البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم ، والسخاء والبذل يرتن به قلوب الرعية والجند والأعوان فيعظم الانتفاع به .

١٧ - [الشجاعة]

ومنها الشجاعة وهو الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة ، فأكثر الناس أخطاراً ، وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات ، هم الملوك . فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

١٨ - [المنافسة]

ومنها المنافسة وهي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والاجتهاد في الترقى إلى درجة أعلى من درجته .

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل ، والمراتب العالية وما يكسب مجداً وسوداً فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة بالللذات ، والزينة والنزه فمكروه جداً .

١٩ - [الصبر عند الشدائد]

ومنها الصبر عند الشدائد وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة ، ومستحسن جداً ما لم يكن الجزع نافعاً ، ولا الحزن والقلق مجدياً ، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة سؤبة تلك الشدائد ، فما أحسن الصبر إذا عذمت الحيلة ، وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً .

٢٠ - [عظم الهمة]

منها عظم الهمة وهو استصغار مادون النهاية من معالي الأمور ، وطلب المراتب السامية ، واستحقاق مايجود به الإنسان عند العطية ، والاستخفاف بأوساط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملكه ، وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولاعتداد به .

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم .

ومن عظم الهمة الأنفة ، والحمية ، والغيرة . والأنفة هو نبؤ النفس عن الأمور الدنيئة . والحمية والغيرة جمعياً هما الغضب عند الإحساس بالنقص وإنما تلحق الإنسان الغيرة على الحرم لأن في التعرض لهن عاراً ومنقصة . فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهن في غير حق له ، والاهتضام نقيصة .

ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام ، ودخول النقص . وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

٢١ - [العدل]

ومنها العدل وهو القسط اللازم للاستواء وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير .

ثانياً [الأخلاق الرديئة]

١ - [الفجور]

فأما الأخلاق الرديئة التي تعد نقائص ومعائب فإن منها الفجور وهو الانهك في الشهوات ، والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات ، والإدمان عليها ، وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها ، وبالجملة السرف في جميع الشهوات . وهذا الخلق مكروه جداً يهدم الجاه ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة .

٢ - [الشَّرُّ]

ومنها الشَّرُّ وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها ، وطلبها من كل وجه ، وإن قبح التعسف في اكتسابها ، والمكالبة عليها ، والاستكثار من القنية وإدخار الأعراض .

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس ، إلا من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك ، وتزين الملوك ، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيّتهم وأعوانهم وأعدائهم وأضدادهم .

٣ - [التبذل]

ومنها التبذل وهو أطراح الحشمة ، وترك التحفظ والإكثار من الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش والتفوه بالحننا ، وذكر الأعراض ، والمزح والجلوس في الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، والتكسب بالمعاش الزرية ، والتواضع للسفلة وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

٤ - [السفه]

ومنها السفه وهو ضد الحلم ، وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الأمور ، والمبادرة في البطش ، والإيقاع بالموذّي ، والسرف والعقوبة ، وإظهار الجزع من أدنى ضرر ، والسبُّ الفاحش .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح .

٥ - [الخرق]

ومنها الخرق وهو كثرة الكلام ، والتحرك من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة إلى الأمور من غير توقف ، وسرعة الجواب .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد وهو بأهل العلم وذوي النباهة أقبح .

٦ - [القحة]

ومن قبيل الخرق القحة وهو قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنة .

وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار .

٧ - [العشق]

ومنها العشق وهو إفراط الحب والسرف فيه .

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال ، إلا أن أقبحه وأشره ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة ، واتباع الشهوة الرديئة . وقد يحمل هذا الخلق صاحبه على الفجور ، وارتكاب الفواحش ، وكثرة التبذل ، وقلة الحياء ، ويكسبه عادات رديئة ، وهو بكل أحد قبيح ، إلا أنه بالأحداث والمترفهين والمتنعمين أقل قبحاً .

٨ - [القساوة]

ومنها القساوة وهو خلق مركب من البغض والشجاعة والقساوة وهو التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى .

وهذا الخلق مكروه من كل أحد إلا من الجند وأصحاب السلاح والمتولين للحروب فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه .

٩ - [الغدر]

ومنها الغدر وهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به . وهذا الخلق مستقبح وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة وهو بالملوك

والرؤساء أقبح ولهم أضّر فإن من عُرِف من الملوك بالغدر . لم يسكن إليه أحد ولم يثق به وإذا لم يسكن إليه فسد نظام ملكه .

١٠ - [الخيانة]

ومنها الخيانة وهو الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم وتلك ما يستودع . ومجادة مودعه .

ومن الخيانة أيضاً طيُّ الأخبار إذا ندب لتأديتها ، وتحريف الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجوها .

وهذا الخلق أعني الخيانة مكروه من جميع الناس يثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش .

١١ - [إفشاء السر]

ومنها إفشاء السر وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به .

ومن قبيل السر أخذ الودائع . وإفشاؤه تقيصته على صاحبه فالفشى للسر خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً وخاصة بمن يصحب السلاطين ويدخلهم .

١٢ - [النجاسة]

ومن قبيل إفشاء السر النجاسة وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً وهذا الخلق قبيح جداً وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه فنقله إلى من يكرهه قبيح لأن في ذلك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ وذلك غاية التشعر .

١٣ - [الكبر]

ومنها الكبر هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان مافيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له .

وهذا الخلق مكروه ضارّ لصاحبه ، لأن من أعجبه نفسه ، لم يستزد من اكتساب الأدب ومن لم يستزد بقي على نقصه فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ولما ينتهي إلى غاية الكمال .

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ومن أبغضه الناس ساءت حاله .

١٤ - [العبوس]

ومنها العبوس وهو التقطيب عند اللقاء وقلة التبسم وإظهار الكراهية وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع فإن قلة البشاشة هي استهانة بالناس والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر .

وقلة التبسم وخاصة عند لقاء الإخوان تكون من غلظ الطبع . وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل .

١٥ - [الكذب]

ومنها الكذب وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به . وهذا الخلق مكروه مالم يكن لدفع مضرة لا يمكن أن تدفع إلا به أو اجترار نفع لا غنى عنه ولا يوصل إليه إلا به . فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح وإنما يستقبح الكذب إذا كان عبثاً . ولنفع يسير لا يخطر له . لا يفي بقباحة الكذب . والكذب يقبح بالملوك والرؤساء أكثر . لأن اليسير من النقص يشينهم .

١٦ - [الخبث]

ومنها الخبث وهو إضرار الشر للغير وإظهار الخير له واستعمال الغيلة والمكر والخديعة في المعاملات .

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا من الملوك والرؤساء فإنهم إليه مضطرون واستعمالهم إياه مع أصدادهم وأعدائهم غير مستحب فأما مع أوليائهم وأصحابهم فإنه غير مستحسن .

١٧ - [الحقد]

ومن قبيل الخبث الحقد وهو إضرار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه فأخفى ذلك الاعتقاد إلى وقت إمكان الفرصة .
وهذا الخلق من أخلاق الأشرار وهو مذموم جداً .

١٨ - [البخل]

ومنها البخل وهو منع المسترفد مع القدرة على رفده . وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا أنه من النساء أقل كراهية ، بل قد يستحب من النساء البخل . فأما سائر الناس فإن البخل يشينهم . وخاصة الملوك والعظماء فإن البخل أبغض منهم أكثر مما أبغض من الرعية والعوام ويقدر في ملكهم لأنه يقطع الأطماع منهم ويبغضهم إلى رعيته .

١٩ - [الجبن]

ومنها الجبن وهو الجزع عند الخواف والإحجام عما تحذر عاقبته أو لا تؤمن مغيبته .

وهذا الخلق مكروه بجميع الناس إلا أنه للملوك والجند وأصحاب الحروب أضر .

٢٠ - [الحسد]

ومنها الحسد وهو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له .
وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد .

٢١ - [الجزع]

ومنها الجزع عند الشدة وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن وهو مستقبح إذا لم يكن مُجدياً ولا مفيداً .
فأما إظهار الجزع لتحل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة أو استغاثة مغِيث أو اجتلاب معين فيما تغني فيه المعاونة فغير مكروه ولا يعد نقیصة .

٢٢ - [صغر الهمة]

ومنها صغر الهمة وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد به والرضى بأوساط الأمور وأصاغرهما .
وهذا الخلق قبيح بكل أحد وهو بالملوك أقبح بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

٢٣ - [الجور]

ومنها الجور وهو الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور والسرف والتقصير وأخذ الأموال من غير وجهها والمطالبة بما لا يجب من الحقوق الواجبة وفعل الأشياء في غير مواضعها ولأوقاتها ولا على القدر الذي يجب ولا على الوجه الذي يُحِبُّ .

ثالثاً [أخلاق تحتل أمرين]

ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة .

١ - [حب الكرامة]

فمنها حب الكرامة وهو أن يسرَّ الإنسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمدح والثناء الجميل . وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان لأن محبته تحثهم على اكتساب الفضائل وذلك أن الحدث والصبي إذا مدح على فضيلة تُرى فيه كان ذلك داعياً له إلى الازدياد من الفضائل .

فأما الأفاضل من الناس فإن ذلك يعدُّ منهم تقيصة لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغرَبةً منه وإذا كان من أهل الفضل فليس ينبغي أن يسر ولا يستغرب ما يظهر منه من الفضائل .

وكذلك الإكرام والتبجيل إن كان زائداً على استحقاقه فإنه يجري مجرى الملق والسرور بالملق غير محمود لأنه من جنس الخديعة .

٢ - [حب الزينة]

ومنها حب الزينة وهو التصنع بحسن البزة والمركوب والالات وكثرة الخدم والحشم وهذا مستحسن من الملوك والعظماء والأحداث الظرفاء والمتنعمين والنساء .

فأما الرهبان والزهاد والشيوخ وأهل العلم وخاصة الخطباء والواعظين ورؤساء المدن فإن الزينة والتصنع مستقبح منهم . والمستحسن منهم لبس الشعر والخشن والمشى والحفا ولزوم المساجد وكراهية التمتع .

٣ - [المجازة على المدح]

ومنها المجازة على المدح وهو مجازة من يمدح الإنسان ويشكره في المجالس والمحافل وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء لأن ذلك يدعو الذي يمدح الإنسان إلى مدحه ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً يبقى على الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاء ذكرهم الجميل . فأما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهة فذلك غير مستحب لأنه من جنس الملق . وحب الملق مكروه لأنه من قبيل الخديعة .

فأما إثارة انتشار الذكر والمدح وتداول الناس له وبقاؤه بعدهم فإن ذلك محمود منهم .

فجائزة المادح مستحسنة من الملوك ومنعهم مستقبح وضار لأن ذلك يدعو إلى ذمهم وذمهم يبقى أيضاً على الدهر فينشر لهم ذكراً قبيحاً وذلك مكروه للملوك والرؤساء .

فأما أصاغر الناس فحببتهم جزاء المادح لهم غير مستحسن لأن المادح إذا مدح الذي من الناس فإنما يخدعه . فإذا أجازته اعتقد أنه استنفذ^(١) منه تلك الجائزة .

وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم فيبادرون إلى مجازة المادح فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق .

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف استنفذ .

٤ - [الزهد]

ومنها الزهد وهو قلة الرغبة في الأموال والأعراض والادخار والقنية وإيثار القناعة بما يقيم الرمق ، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراكب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الأموال وأموالهم .

وهذا الخلق مستحسن جداً ولكن من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت .

فأما الملوك والعظماء فإن ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم ، لأن الملك إذا أظهر الزهد فقد صار ناقصاً لأن ملكه لا يتم إلا باحتشاد الأموال والأعراض وادخارها ليذب بها عن ملكه ويصون بها حوزته ويفتقد بها رعيته وذلك مضاد للزهد . فإن ترك الادخار بكل ملكه صار معدوداً في جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

[الفصل الثالث]

في وصف الطريقة إلى السمو بالأخلاق

فهذه الأقسام التي ذكرناها هي أخلاق جميع الناس .

• أما الممودة منها المعدودة فضائل فقلما يجتمع كلها في إنسان واحد .

وأما المذموم منها المعدود تقائص ومعايب فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من لم يرض نفسه ويؤدبها فإن من لم يتعمل لضبط نفسه ويفتقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة وإن لم يحس بها ولم يفتن لها وإذا كان الأمر على ما ذكرنا كان أولى الأمور بالإنسان إن

يفتقد أخلاقه ويتأمل عيوبه ويجهد في إصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الأخلاق الحسنة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها .

فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم لا كما يعتقد الجاهل والعامّة أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم وكثرة الذخائر والأعراض فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال والآلات ويعظمون أبدأ الأغنياء وذوي الأموال ولا يترتب بعضهم على بعض إلا بكثرة الأموال أو الجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال مما يتفاضل به الناس بل كثرة الأموال إنما تتفاضل بها أحوال الناس .

فأما نفوسهم فليست تكون أفضل من نفوس غيرهم بكثرة الأموال وذلك أن الفاجر السفيف الجاهل الشرير وإن حوى أموالاً عظيمة فليس يكون أفضل من العفيف الحكيم العالم الخير وإن كان فقيراً بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه .

فأما الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلا بكثرة الفضائل فقط فإن اجتمع للإنسان مع الأخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغني والثروة فلعمري إنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المعتز لأن من سعادات الإنسان أيضاً وخاصة إذا كان فاضلاً عادلاً عفيفاً أن يصرف ماله في وجوهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يحب تفقده ويسعف به أهل المسكنة ولا يقعد عن حق يجب عليه ولا مكرمة تزيد في محاسنه .

فأما الناقص الجاهل السيء العادات فإن الغني ربما زاده نقصاً وأضاف إلى معاييه . فإنه لا يعد بخيلاً من لامال له وإن كان البخل في طبيعته فليس يظهر ذلك منه ومالم يظهر منه فليس يعاب به لأن الإنسان إنما يعاب بما

يظهر منه فإذا كان غنياً ذا مال ويسار ولم يجذ به ظهر بخله فيصير المال جالباً عليه هذا العيب .

وأيضاً فإن أكثر الفجور والمحظورات والشهوات الرديئة ليست تنال إلا بالأموال .

فالفقير وإن كان في شيمته الفجور فليس يكاد يظهر ذلك منه فإذا كان ذا مال تمكن من شهواته فتظهر عيوبه .

فقد يكون الغنى مكسباً لصاحبه عيوباً ونقائص .

وقد يكون الفقر مفيداً صاحبه فضائل ومحاسن .

فليس يتفاضل الناس على الحقيقة بالأموال والأعراض ، وإنما يتفاضلون بالآداب والمحاسن الذاتية .

فحقيق بالإنسان أن يسوس نفسه السياسة المستحسنة ، ويسلك بها الطريقة المحبوبة ، فإنه بذلك يكون محبباً إلى الناس ، مقبولاً عندهم ، معظماً في نفوسهم ، مفضلاً (على) غيره ، موقراً عند الرؤساء والملوك ، مقبول القول ، عريض الجاه .

وهذه خير من ^(١) الرئاسة المكتسبة بالأموال ، لأن المال قد تلحقه الجوائح ، فإذا فارق صاحبه ، سقطت منزلته من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة ، لأنه إذا رأس بالمال ، فالمعظم له هو ماله لانفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شيء يعظم من أجله .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المهذب الأخلاق فإن هذا رئاسته

(١) في الأصل وهذه هي الرئاسة .

بفضائله ، وفضائله غير مفارقة له فهو رئيس مادام ، ومعظم لذاته لالشيء من الخارج .

ولأن الراغب في سياسة نفسه ، المؤثر تهذيب أخلاقه إذا نبه على خلق مذموم يجده في نفسه ، وأحب اجتنابه ، ربما صعب عليه الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم يطاوعه طبعه .

وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه ، وآثر التخلق به ولم تستجب له عادته ، ولم يصل إلى مراده ، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا إلى مرادهم ، من اعتياد (١) الأخلاق الجميلة ، والانطباع بها ، وتجنب الأخلاق القبيحة ، والتفرغ منها .

فذكر من أجل ذلك طريق الارتياض بالأخلاق ، والتعمل لاعتيادها .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن سبب اختلاف الأخلاق في الناس ، هو اختلاف قوي النفس الثلاث فيهم ، وهي الشهوانية والغضبية والناطقة .

وأن صلاح الأخلاق ، هو تذليل الشهوانية منها والغضبية ، وتمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال الحمود من أفعالها ، وطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستثبحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين .

أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان في أوقات شهواته ، وعند شدة القرم إلى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الرديئة ، إلى ما هو مستحسن من جنس تلك

(١) في الأصل اجتياذ .

الشهوة الرديئة، إلى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة، ومتفق على ارتضائه فيقتصر عليه ، فإن بذلك الفعل تنكسر شهواته ، ثم يعللها ويعددها ، فإن سكنت وإلا عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعل ذلك وكرّر فعله كفت النفس . وإذا استمرت على هذه الحال ألفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها .

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساک ، وأهل الورع والواعظين ، ويلزم مجالس الرؤساء وأهل العلم فإن الرؤساء (وأهل العلم) ، وخاصة رؤساء الدين ، يعظمون من كان معروفاً بالعفة ، ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون والتعفف والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ، ويغضوا منه ، ويلحق برتبة من يعظم في المحافل .

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد^(١) والنساک ، وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمتهتكين ومن يكثر الهزل واللعب .

الكلام على السكر

وأكثر ما يجب عليه تجنبه السكر . فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ويقويها ، ويحملها على التهلك ، وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها .

وذلك أن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز ، فإذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان

(١) في أكثر النسخ الزهاد والرهبان والنساک .

يتجنب في صحوه .

فأولى الأشياء عن طلب العفة ، هجر الشراب بالجملة ^(١) ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر والخلاعة . ولا يظن أنه إن حضر تلك المجالس واقتصر على اليسير من الشراب لم يستضر به . فإن هذا غلط وذلك أن من يحضر مجالس الشراب ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب ، بل إن حضر مجالس الشرب ، وكان في غاية العفة تاركاً للشرب متمسكاً بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه إلى التهتك ^(٢) وما أكثر من فعل ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فشر ^(٣) الأحوال لمن طلب العفة ، حضور مجالس الشراب ، ومخالطة أهلها ، والاستكثار من معاشرتهم .

الكلام عن الغناء

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقل من استماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن المتصنعات فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة ، فإذا انضاف إلى ذلك أن تكون المسمعة مشتتة متعملة لاستمالة العيون إليها ، اجتمع على السامع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه .

(١) وفي نسخة ابن عربي بعد الجملة : إن لم يمكنه أن يقتصر فليقتصر على اليسير منه ويكون في الخلوات أو مع من يحشمه . قلت : الحرام بين والحلال بين ، فما لا يرتكب أمام الناس لا يرتكب في الخلوة .

(٢) في الأصل الفتك وفي نسخة ابن عربي تاقت نفسه إلى الفعل وما هو أكثر من ذلك وتهتك بعد الستر والصيانة .

(٣) في نسخة ابن عربي : فشيئة أحوال من طلب العفة عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها إلخ .

والأولى لمن همّ بقهر الشهوة أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بدءٌ ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ، ومن لامطمع للشهوة فيه . والإقلال ^(١) منه خير وأصون للمتعمّق .

الكلام على التوسط في الطعام

فأما الطعام فينبغي أن يعلم أن غايته هو الشبع لدفع ألم الجوع وفاخر الطعام ودينئة جميعاً مشبعان . فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ . والأولى هو التوسط في أنواع المآكل ، وأن يكون من الجنس الذي نشأ عليه الإنسان واعتاده وألفه .

على أن شهوة الطعام والنهم فيه ، وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهوانها ، وليس يكسب صاحبها من العار ، ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ، ومصاحبة الأحداث المتهيين للفواحش ، فإن ذلك في غاية القبح ، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه ، وأخف على فاعله . وهو مع ذلك قبيح والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه ، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام ، هو أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وجدته من المآكل فإن كان المشتهى الذي تآقت نفسه إليه حلواً ، فإلى أي حلاوة وجدها ، وإن كان غير ذلك فإلى ماشأه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام ما يشبه ذلك المشتهى في الطعم ، فإن شهوته تسكن ونفسه تكفّ .

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ذاكرةً لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار ^(٢) ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ،

(١) بل الأولى تركه بالكلية فيجب على المسلم أن يتغنى بالقرآن ويجعله أغنيته انظر رسالتنا « اللهو المباح في ضوء العصر الحديث » ورسالة « أغاني الأفراح الإسلامية » طبعتنا .

(٢) في النسخة البطريركية والعار في الدنيا وشدة العذاب في دار الآخرة ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ويداوم على فكر ذلك فإن نفسه ألخ .

فإن نفسه تبغض الشهوات (الرديئة) ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها .

فهذا الذي ذكرنا هو طريق إلى رياضة النفس الشهوانية وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالعادات الحمودة المرضية ، فيما يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدثهم ، وتسفههم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظرًا شنيعاً يأنف منه الخاصي والغامي . وأن يتذكر ما شاهد منهم في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ، وعند ذنوب إخوانه وأودائه ، في جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء ، انكسرت بذلك سورة غضبه ، وأحجم عما يهيم بالإقدام عليه من السبّ والوثوب ، وإن لم يكف بالكلية قصر ، ولم ينته إلى غاية الفحش .

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يجني عليه ، أنه لو كان هو الجاني ، ماالذي كان يستحق أن يقابل على جنايته ؟ فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية ، أو أرش ذلك الأذى ، يسير جداً ، فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني والمؤذي بحسب اعتقاده ، فلا يسرف في الانتقام ، ولا يفحش في الغضب . فإذا فعل ذلك دائماً وجعله ديدناً ، وتفقد معائب السفهاء ، ومن يسرع إليه الغضب ، لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية ، وتنقاد له ، فإذا استمر على ذلك مدة صار خلقاً وعادة .

وينبغي لمن رغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح (في مجالس الشراب) وحضور مواضع الحروب ومقامات الفتن و (يتجنب) مجالسة الأشرار ومعاشرة السفهاء ومخالطة الشرط فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة وتعدمه الرأفة والرحمة فتقسو لذلك نفسه الغضبية فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم وذوي الوقار والشيوخ والرؤساء والأفاضل ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره .

وينبغي له أيضاً أن يتجنب المسكر من الشراب ، فإن السكر يهيج النفس الغضبية ، أكثر مما السكر يهيج الشهوانية ، ولذلك ربما يسرع إلى العريضة ، والثوب على جلسائه والاستخفاف بهم وسبهم وذكر أعراضهم (بالقبيح) بعد أن كان يتحنن عليهم ويتودد إليهم ولا يكون بين الوقتين إلا بمقدار ما يستحكم به السكر .

فالمسكر مثير القوة الغضبية ومقوّ لها فمن أراد أن يسكن نفسه الغضبية فلا بدّ من أن يتجنب السكر وإن تمكن من هجر الشراب البتة فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية جميعاً .

وينبغي لمن أراد تذليل قوته الغضبية والشهوانية أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ولا يقدم على شيء إلا بعد أن يروّي فيه ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدناً وعادة فإن الرأي وجودة الفكرة يقبحان له السفه وسرعة الغضب والانهاك في الشهوات واتباع اللذات فإذا استقبح ذلك انحجم عنه وعدل إلى ما يقتضيه الرأي والفكر فإن لم يرتدع بالكلية فلا بد أن يؤثر ذلك فيه فيقتصر عما يريد التسرع إليه .

وملاك الأمر في تهذيب الأخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي النفس الناطقة فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات وهذه النفس إذا

كانت قوية متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيهِ الباقيتين ويكف نفسه عن جميع القبائح ويتبع أبداً محاسن الأخلاق وإذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها فكانت مغمورة خافية فأول ما ينبغي أن يعتمد في سياسة أخلاقه أن يروض هذه النفس ويقويها .

وتقوية هذه النفس إنما تكون بالعلوم العقلية فإنه إذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت نفسه وتنبهت من شهوتها وانتعشت من خمولها وأحست بفضائلها وأنفت من رذائلها وذلك أن هذه إنما تضعف وتخفت إذا عدت الفضائل والمناقب واستولت عليها الرذائل فإذا اقتنت الفضائل واكتسبت الآداب تيقظت من غشيتها وثارَت من سكرها وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هي العلوم العقلية وخاصةً مَادَقٌ منها فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه وعظمت همته وقوي فكره وتمكن من نفسه وملك أخلاقه وقدر على إصلاحها وأنقاد له طبعه وسهل عليه تهذيبه وأذعنَت له القوى الغضبية والشهوانية وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ما ينبغي أن يبدأ به من يجب سياسة أخلاقه النظر في كتب الأخلاق والسياسات ثم الارتياض بعلوم الحقائق فإن أشرف ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور وأشرفت على هيئات الموجودات وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته ترقى إلى مراتب أهل الفضل .

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً مجالسة أهل العلم ومخالطتهم والاقتراء بأخلاقهم وعاداتهم وخاصة أصحاب علوم الحقائق والمتيقظون منهم المستعملون في جميع أمورهم ماتقتضيه علومهم وتوجيه عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة واستعمال ما حسن فيها واطراح ما قبح
فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة فإن النفس الناطقة إذا
أرتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقظت وتشرفت أنفت من العادات المستقبحة
وتنزهت عن التدنس بها فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها
ويغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة والتخلق بها .

وقد تبين من جميع ما ذكرنا أن طريق الارتياض بالأخلاق الحمودة
والتصنع لاعتيادها واتباع الحمود المرضي منها واجتناب المذموم والمستقبح
وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها هو إصلاح النفس الناطقة
وتقويتها وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن فإن ذلك هو آلة السياسة
ومركب الرياضة .

ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها أو تعذر عليه
ذلك فليبذل جهده في تدقيق الفكر ومجاهدة النفس وتمثيل ما بين عاداته
القبیحة والجميلة وينظر أيها أجدى عليه وأيها أنفع له وأيها أحد عاقبة وأبقى
على الأيام .

فإنه إذا صدق نفسه وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط
فأما بعد مفارقتها فليست باقية عليه ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقياً
على الدهر متداولاً بين الناس يعاب به ويُزرى عليه بقبحه وكذلك شدة
الغضب والتسرع إلى الانتقام والسب والفحش فإنه إذا انجلت غمّته وسكنت
سوّته تأمل أمره ورأى ما فعله وجده قبيحاً ولم يجد مجدياً ولا مفيداً وقد
صار ما فعله عند الغضب نقيصة يوسم بها ومعرة يسب بها وربما ارتكب في
الغضب جنایات يعاقب عليها ويؤدب من أجلها .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً تجدها غير نافعة

ولامجدية وذلك أن الحسد والحقد والخبث وأمثال هذه لا ينتفع بها صاحبها وإن انتفع بالخبث والشر فشر منفعة ومع ذلك هو ضار له فإن من تشرر قصده الناس بالشر واستعدوا لأذيته وتعملوا للإضرار به وتوقوه واحترزوا منه وكرهوا نفعه وقصروا عليه وجوه الخير واجتهدوا في ذلك ومأسوا حال من هذه صفته .

فستعمل الشر والخبث سي الحال يضره من شره أكثر مما ينفعه فإذا حاسب الإنسان نفسه وأجاد فكره وتمييزه علم أن الضرر في مساويء الأخلاق أكثر من النفع وأن الذي يعده منها نفعاً فليس هو بنفع على الحقيقة . هو يسير جداً غير باقي ولا مستمر فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن الشر والخبث يجلبان عليه الشر ويوحشان منه الناس فإذا دام ذلك وأكثر منه قوي في نفسه اتباع محاسن الأخلاق وسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها وغلب عليه الخير والسداد وفزع من العيب والعار . فإذا فعل ذلك دائماً لم يلبث أن يصلح أخلاقه ويحسن طريقتة ويهذب شمائله ويلحق برتبة أهل الفضل ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

. وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع منها بما دون الغاية ولا يرضى إلا بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريّاً أن يتوسط في الفضائل ويبلغ منها رتبة مرضية وإن فاتته الدرجة العالية .

فأما إن قنع بالتوسط لم يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدون المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبداً في التمام .

فهذا الذي ذكرنا هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في

محمود العادات فإذا أخذ الإنسان نفسه به وأكثر بمراعاته ^(١) وتعهده صار له من الفضائل ديدناً والمحاسن له خلقاً وطبعاً .

الفصل الرابع |

في وصف الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق

وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي يصل بها إلى التام فنقول :

الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة ولم تشنه رذيلة وهذا الحد قل ما ينتهي إليه إنسان فإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه الناس . فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستولئ عليه وعلى طبعه ضروب الشر فقل ما يخلص من جميعها حتى يسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط بكل فضيلة ومنقبة .

إلا أن التام وإن كان عزيزاً بعيد التناول فإنه ممكن وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان ونهاية ما هو منتهى له وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قيناً بأن ينتهي إلى غايته التي هو متهيء لها ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها .

| أوصاف الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق |

١ - | التفقد لجميع معاييه |

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام فهو أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه متيقظاً لجميع معاييه متحرزاً من دخول نقص عليه مستعملاً لكل فضيلة

(١) كذا في الأصل ولعله (أكثر مراعاته أو أكثر الارتياض بمراعاته) .

ومجتهداً في بلوغ الغاية عاشقاً لصورة الكمال مستلذاً لمحاسن الأخلاق متيقظاً في الأصل متبغضاً لمذموم العادات معنياً بتهديب نفسه غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل مستعظماً بالسير من الرذائل مستصغراً للرتبة العليا مستحقراً للغاية القصوى يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه .

٢ - [القراءة - والإحاطة]

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام وتحفظ عليه الكمال فهي أن يصرف غايته إلى النظر في العلوم الحقيقية ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور الموجودة وكشف عللها وأسبابها وتفقد غاياتها ونهاياتها ولا يقف عند غاية من علمه إلا ورنما بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية ويجعل شعاره ليله ونهاره قراءة كتب الأخلاق وتصفح كتب السير والسياسات وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ويشدو أيضاً طرفاً من أدب اللسان والبلاغة ويتحلى بشيء من الفصاحة والخطابة ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقة فإن كان ملكاً أو رئيساً فينبغي أن يجعل جلساءه ومناديه وغاشيته والمطيفين به كل من كان معروفاً بالسرو^(١) والسداد موصوفاً بالأدب والوقار مخصصاً بالعلم والحكمة متحققاً بالفهم والفطنة ويقرب مجالس أهل العلم ويبسطهم ويكثر مجالستهم والأنس بهم ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه وسياسة الملك ورسومه وأخبار الحكماء وأخلاقهم وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

(١) في الأصل بالسرو . والسرو المروءة والشرف .

٣ - [الاقتصار في الشهوات]

وينبغي للإنسان التام ولن طلب التام أيضاً. أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً يقصد فيه الاعتدال ويحتنب السرف والإفراط ويعتمد من الشهوات واللذات المعتدلة ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ويأخذ نفسه بذلك ويحظر عليها الطمع في لذة مكروهة أو شهوة مسرفة ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم وينقبض عن الخُلعاء ومخالطتهم ويُشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح وخصم مكافح يريد أبداً ضرره وأذيته ويعتمد شينه وفضيحتة فيناصب شهوته بالعداوة ويكشفها بالمعاندة ويقمع أبداً سورتها ويكسر أبداً حدتها ويقهر دائماً سطوتها ويدلل على التدرج عزها ويسكن على الترتيب فورها فإنه إذا فعل ذلك كان خليقاً أن يملك نفسه وتنقاد له شهوته وينطبع بالعفة ويألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها وسمح لها في مرادها وأهمل سياستها ومراعاتها استطالت وشمخت ولم تلبث أن توهن صاحبها وتقوده وتحمله على مايسوءه ويغره فيصير بذلك بعيداً من التام غير طامع في الكمال .

٤ - [مفارقة الشهوات الرذئية وهجر اللذات الدنيئة]

وينبغي لمن يطلب التام أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه مادامت اللذة عنده مستحسنة والشهوة مستحبة وهذه الحال صعبة جداً متعسرة على طالبها بعيدة المآخذ وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات وأشد على تمكن الشهوات .

واللذات لديهم معرضة ولهم سجية وعادة ففارقتها عليهم متعذرة وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع خاصة لمن قد نشأ على الانهالك فيها والتوفر عليها إلا أن الملوك وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها فهم أعظم همّاً

وأعز نفوساً والحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التام الإنساني واشتاقت إلى الرئاسة الحقيقية علم أن الملك أحق أن يكون أتم أهل زمانه وأفضل من أعوانه ورعيته فيهن عليه مفارقة الشهوات الرديئة وهجر اللذات الدنيئة .

٥ - [التعود على الكرم]

وينبغي لمن رغب في سياسة أخلاقه وسلك طريق الاعتدال في شهواته أن يجعل له قانوناً يقتصر عليه في المآكل والمشرب معروفاً بالكرم وهو أن لا يستبد^(١) بالمأكّل والمشرب وحده بل يقصد أن يشرك في مأكله من ذلك إخوانه وأوداءه إن رعية أو سوقة وإن كان ملكاً أو رئيساً فيجمع عليه غاشيته وندماءه ويعم به أصحابه وأعوانه ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة وخاصة من سبقت له معرفة أو تقدمت له حرمة ويصرف إلى ذلك حظاً من عنايته فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم مدبره أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه وليظهر لمن يجتمع على مائدته وعلى طعامه وشرابه من إخوانه وأصدقائه ورعيته وندمائهم - إن كان ملكاً أو رئيساً - أن جمعه لهم للأنس بهم والسرور بمعاشرتهم لايكرمهم بطعامه وشرابه ولأن ذلك قدراً يعتد به وليحترز كل الاحتراز من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب أو تبجح^(٢) به فإن ذلك يزيّر بفاعله ويغض منه ويوحش من يغشاه ويقطعهم عنه .

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً إذا كان مقلداً أن يواسي بطعامه إخوانه وإن كان محتاجاً إليه ويستحسن منه أيضاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء وقد يستحسن أيضاً أكثر من ذلك أن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره وإن كان شديد الاضطرار إليه وكان لا يقدر على غيره .

(١) في الأصل يستبدل .

(٢) في الأصل أو يبيح به .

٦ - [الزهد في المال]

وينبغي لمن طلب السياسة التامة أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها فإن المال إنما يراد لغيره وليس هو مطلوباً لذاته فإنه في نفسه غير نافع وإنما الانتفاع بالأغراض^(١) التي تنال به فالمال آلة تنال بها الأغراض فلا يجب أن يعتقد أن اقتناؤه وادخاره مفيد فإنه إذا ادخر وحرس لم ينل صاحبه شيئاً من الأغراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها فالمال مطلوب لغيره .

٧ - [حسن التصرف في المال]

فينبغي للسديد الرأي العالي المهمة أن يزنه بوزنه فيكسبه من وجهه ويفرقه في وجوهه ويكون مع ذلك غير متوانٍ في اكتسابه ولا مقتراً^(٢) في طلبه لأن عدم المال يضطره إلى التواضع لمن هو دونه إذا وجد عنده حاجته ووجود المال يغنيه عن هو فوقه وإن دنت منزلته ويكون أيضاً غير مدّخر ولا متمسك به ويقصد الاعتدال في تفريقه ويحذر من السرف والتبذير في تحريجه ولا يمنع حقاً يجب عليه ولا يصرفه في شيء لا يجب ولا يشكر عليه وإذا فرغ من حاجاته واستكفى من نفقاته وسد جميع خلله عاد إلى النظر في أمره فإن كان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم أغراضه أخرج منها قسطاً فجعله عدة ليستظهر بها لشدة . ويعدها لنائبة . ثم عمد إلى الباقي ففرقه في ذوي الحاجة من أهله وأقاربه وإخوانه وأهل مودته وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين وأهل الفاقة المستورين ويجعل اهتمامه بإفضاله وبره أكثر من اهتمامه بضرورياته فإن الضروريات تقوده كرهاً إليها والبر والنوافل متى لم يهتم بها ويشعر نفسه

(١) في الأصل الأغراض .

(٢) لعله مقصر .

التزامها لم يسهل عليه فعلها لأن ضعف النفس وسوء الظن يصرفانه عنها وإن لم يكن له جاذب من نفسه وداع قوي من همته لم يقدم عليها وغلب عليه ^(١) التواني فإذا تواني عن البر والتفضل كان شحيحاً ضئيلاً بخيلاً دنيئاً وليس بتمام بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له برّ يُعرف ولم تنشر عنه أفعال توصف هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية ، فيجبوا الأموال من حقها وواجباتها ^(٢) ، ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤوناتهم ، وأرزاق جندهم وأصحابهم ، قدر الكفاية من غير سرف ولا تقتير ، ويعدوا منه شطراً لخوف عاقبة ، ويصرفوا ^(٣) الباقي في طرق الكرم والجود ، ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم ، ويدفعوا لمن هو مشاير على العلم والأدب ، ويبروا الضعفاء والمساكين ، ويتفقدوا الغرباء (والمنقطعين) ، ويهتوا بالزهاد وأهل النسك، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم ، ويعنوا بالصغير والكبير من رعيتهم ، وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم . فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية وأحق بالجود من العامة .

وقد يستحسن أيضاً من المقلين والمقتيرين ، المؤاسة بالمال والإيثار به ، وإن كانوا محتاجين إليه وكلما كانت حاجاتهم أشد كان ذلك الفعل أحسن ^(٤) . وهذه الحال تستحسن إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه ، أو صديقاً من أصدقائه (يختص به) قد دعت الحاجة إلى مالا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه ، أو لدفع محنة نزلت به ، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال ،

(٢) في نسخة : ووجهها .

(٤) في نسخة : الفعل حسناً منهم .

(١) في الأصل عليها .

(٣) في الأصل : ويصرف .

فيبتديء (حينئذ) بإسعافه عفواً من غير مسألة وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولا مودة ، كان جيلاً مستحسناً .

٨ - [ترك الغضب]

وينبغي لهب الكمال أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع ، يفعل ما يفعله من غير علم ولا روية . فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت إلى أن يغضب خصمه ، ويسفه عليه ، اعتقد فيه أنه في تلك الحال بمنزلة البهائم والسباع ، فيسك عن مقابله ، ويحجم عن الاقتصاص منه ، ألا يعلم أن الكلب لو نبج عليه لم يكن يستجيز مقابله على نبجه ، وكذلك البهيمة لو رحته لم تستحسن عقوبتها ، لأنها غير عالة بما تصنعه ، إلا أن يكون جاهلاً سفيهاً فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذته ، وربما عثر السفية فشم موضع عثرته ورفسها برجله .

فأما الحليم الوقور فلا يستحسن شيئاً من ذلك ، وإذا استشعر من خصمه أنه بمنزلة البهائم (حال الغضب) صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية وزمها ، فإن آذاه مؤذٍ بغير سفه (فيؤدي ذلك الأذى إلى حال تغضبه ، أنف أيضاً من الغضب مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذٍ إلى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأي (السليم) من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

٩ - [محبة الناس والتودد إليهم]

وينبغي لهب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس أجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة لهم ، فإن الناس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانية وحلية ^(١) القوة الإلهية هي في جميعهم وفي كل واحد منهم

(١) في الأصل تحلية .

وهي النفس العاقلة . وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً ، وهي أشرف جزئي الإنسان اللذين هما النفس والجسد ، فالإنسان بالحقيقة هو النفس العاقلة ، وهي جوهر واحد في جميع الناس ، والناس كلهم بالحقيقة شيء واحد ، وبالأشخاص كثيرون .

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة ، لو لم تقدم النفس الغضبية فإن هذه النفس تحب لصاحبها التروء فتقوده إلى الكبر والإعجاب ، والتسلط على المستضعف ، واستصغار الفقير ، وحسد الغني ، وبغض ذوي الفضل ، فتسبب (١) من أجل هذه الأسباب العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم .

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية ، وانقاد لنفسه العاقلة ، صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً ، وإذا أعمل الإنسان فكره رأى أن ذلك واجب لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء أو تقصاء ، فالفضلاء يجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاء يجب عليه رحمتهم لأجل نقصهم .

فيحق (٢) لمحبة الكمال أن يكون محباً لجميع الناس ، متحنناً عليهم ، رؤفاً بهم ، وخاصة الملك والرئيس ، فإن الملك ليس يكون ملكاً مالم يكن محباً لرعيته رؤفاً بهم ، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار وأهل داره ، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره ، ولا يتحنن عليهم ، ولا يحب مصالحهم .

(١) في نسخة : فتشأ .

(٢) في نسخة : فبحق يجب لمحبة الكمال .

١٠ - [حب الخير وإلفه]

وينبغي لهب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس وإنفاق مايفضل من ماله فيما يبقي له الذكر الجميل بعد موته ، ويتحرز من فعل الشر فإنه إذا حاسب نفسه ، علم أن من يفعل الشر إنما يفعل الخير يعتقد أنه يصل إليه بذلك الشر وربما كان غلطاً وربما كان مصيباً . وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة ، كان واجباً أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق الشر^(١) ، إذا كان هو الغرض المطلوب لافعل الشر .

فأما إن كان تشرره لشفاء غيظ يلحقه ، فليعلم أنه إذا سكن غيظه وجد ذلك المقصود بالشر غير مستحق لذلك الفعل ، ففعل الشر قبيح ، وخاصة بمن قد جمع^(٢) الفضائل ، إلا أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم ، أو اقتصاصاً من جان ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة ، بل لاتعد شراً لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط ، ويكون منه نفع عام لجميع الناس بأن يرتدع به أمثاله من الجناة، فتكون المنفعة فيه أكثر ، فمن أجل ذلك لا يعد شريراً^(٣) .

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير وألفه ، وتجنب الشر واستوحش منه ، أنف من الأخلاق المكروهة التي تعد شراً ، كالحسد ، والحقد ، والخبث ، والخديعة ، والنميمة ، والغيبة ، والوقية ، وأمثال هذه العادات . وإذا فكر العاقل المحصل فيها ، علم أنها غير مجدية عليه نفعاً ، وهي مع ذلك تشينه وتقبح سيرته ، وإذا كان محباً للتمام ، مستشرفاً للكمال ، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق (المذمومة) .

(١) تشرر تكلف الشر .

(٢) خ : جمع بين الفضائل والعلم .

(٣) خ : شراً .

١١ - [ترك القبيح من الأعمال ظاهراً وباطناً]

وينبغي لمح الكمال أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافياً عن الناس ، وإن اجتهد صاحبها في سترها ، فلا تطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس حتى لا يقف عليه أحد .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس وتعييرهم بها ، وذلك في الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان مالم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوءه أن يكون غيره أفضل منه ، فهو يسر أن تكون الناس كلهم تقصاءً ليساووه في النقص فهو أبداً يتبع معائب الناس ويعيرهم بها ليري الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضاً ذلك لتطيب بما فيها من العيب ، فليس شيء من العيوب يخاف عن الناس وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء أن عيوبهم مستورة عن الناس غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم ، وعظم سطوتهم ، ويستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم ، إن وقفوا على شيء منها . وهذا نهاية الغلط لأن خواص الملك وحاشيته كما أنهم عنده ثقات أمناء ، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره ، والذي لا يستر أسرار نفسه فحال أن يستر عنه أسرار غيره .

وهذه الحال طريقة إلى انتشار معائب الملوك الذين يظنون أنها مستورة ، والعلة في ظنهم أن عيوبهم مستورة ، هو أنهم لا يسمعون أحداً يذكرها ، ولا أحداً يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية . فإذا أحب الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية ، فليعد إلى نفسه فينظر هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه ، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها ، وحرصوا

على صونها . ومنهم من يظن أنها خفية . ومنهم من يعلم أنها قد انتشرت بعد الستر فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة فالواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف ولا منكتم وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف هو من عيوبهم .

١٢ - [اجتناب العيوب بالكلية]

فينبغي لمن أحب الكمال أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة وإن اجتهد في إخفائها وليس بتام من عَرَفَ له عيب ولا طريق إلى التام إلا باجتناب العيوب بالكلية والتمسك بالفضائل في سائر الأمور وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية ونهاية الفضيلة البشرية وواجب على كل إنسان الاجتهاد في بلوغها واستفراغ الوسع في الوصول إليها لأن التام مطلوب لذاته والنقص مكروه لعينه .

وأحق الناس بطلب هذه المرتبة وأولاهم بالتحمل ^(١) لبلوغ هذه المنزلة الملوك والرؤساء لأن الملوك والرؤساء أشرف الناس وأعظمهم قدراً ومأقبح بالشريف العظيم القدر أن يكون ناقصاً فالملوك إذاً ينبغي أن يكونوا أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال لأن الكامل من الناس الجامع للفضائل متوثب ^(٢) بالطبع على الناقص من الناس فالإنسان التام رئيس بالطبع (و) إذا كان الملك تاماً جامعاً لحاسن الأخلاق محيطاً بجميع المناقب كان ملكاً بالطبع وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر ومأولى بالملك أن يرغب في الرئاسة الحقيقية لا بالتي تكون بالقهر وبالشرف الذاتي لا ما هو بالوضع . فالواجب أن يصرف الملك همه إلى اكتساب الفضائل واقتناء المحاسن ويطلب الغاية من المكارم ويستصغر الكبير منها حتى يحوز جميعها ولا يرضى بالنهاية حتى يزيد

(١) خ : التجمل .

(٢) خ : مترتب .

عليها فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصّر أبداً إلى التام وإن أبعد الناس من التام من رضي لنفسه بالنقصان فإذا طلب الملك الكمال فأول ما يجب أن يعتاده عظم الهمة فإن عظم الهمة تصغر^(١) في عينه كل رذيلة وتحسن له كل فضيلة .

وإذا عظمت همة الملك سلم من الإعجاب بملكه ورأى نفسه وهمة أعظم قدراً من أن يستكثر ذلك الملك وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة وليس تعظم النفس إلا بالفضائل .

١٣ - [كره التلق]

ثم ينبغي له أن يكره الملق ويغض المتلقين وينهاهم عن تلقيه به وملاك أمره أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها وهو أبداً في الملوك صعب لأن الإنسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه فالذي يخفى على الملوك أكثر لإعجابهم بحاسنهم وعظم مرتبتهم .

وأيضاً فإن الرعية والسوقة يكتون بعيوبهم ويعيرون بها فهم يعرفونها والملوك لا يجسر أحد على تبكيتهم ولا يقدم أحد على نصحهم وتبكيتهم على عيوبهم لأن الناس أجمع يقصدون التقرب إلى الملوك وتلقهم فلا يقولون لهم إلا ما يحبون لينالوا الحظوة عندهم . فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغي للملك إذا أحب أن يتنزه من العيوب ويتطهر من دنسها أن يتقدم إلى خواصه وثقاته ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه وتقائصه ويطلعوه عليها ويعلموه بها .

وينبغي له أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه بل المستحسن منه أن يجيز الذي

(١) خ : تشنع .

يوقفه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح على المدح والثناء الجميل ويشكر من ينبهه على نقصه ويتحمل لومته بفعله فإنه إذا لزم هذه الطريقة وعرف بها يسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه وإذا نبه على مافيه من النقص أنف منه واستشعر أن أولئك سيعيرونه به ويصغرونه من أجله فيلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب ويقهرها على التخلص من دنسها .

فإذا فعل ذلك وتوفر على اقتناء الفضائل وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ولم يرضَ من منقبة إلا بغايتها ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقى له الذكر الجميل أجلاً لم يلبث أن يبلغ الغاية من التام ويرتقي إلى النهاية من الكمال فيحوز السعادة الإنسانية والرئاسة الحقيقية ويبقى له حسن الثناء مؤبداً وجميل الذكر مخلداً .

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريقة التي تؤديه إلى هذه الرتبة وتحفظ عليه هذه المنزلة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الجاحظ : عصره	٤
منحى الجاحظ في التأليف	٥
حياته ومولده وولعه بالدرس	٥
ثقافته	٦
هذه الرسالة	٧
رسالة تهذيب الأخلاق	٩
الفصل الأول « في تعريف الخلق - وأقسامها - وتأثيرها بالنفوس »	١٢
الأخلاق المذمومة	١٣
التمييز والأخلاق المكروهة	١٤
... تأثير الأخلاق بالنفوس	١٥
أولاً : النفس الشهوانية	١٥
قهر النفس الشهوانية وعلاجها	١٦
ثانياً : النفس الغضبية	١٧
من آثارها - وتأديبها	١٨
ثالثاً : النفس الناطقة	١٩
عيوبها	٢٠
الفصل الثاني « أنواع الأخلاق وأقسامها »	٢١
أولاً : الأخلاق الفاضلة	٢١
١ - العفة	٢١
٢ - القناعة ٣ - التصون	٢٢
٤ - الحلم ٥ - الوقار	٢٣
٦ - الحياء ٧ - الود	٢٣
٨ - الرحمة ٩ - الوفاء ١٠ - الأمانة	٢٤

- ١١ - كتمان السر ١٢ - التواضع ١٣ - البشر ٢٥
- ١٤ - اللهجة ١٥ - سلامة النية ١٦ - السخاء ٢٦
- ١٧ - الشجاعة ١٨ - المنافسة ١٩ - الصبر ٢٧
- ٢٠ - الهمة ٢١ - العدل ٢٨
- ٢٨ ثانيًا : الأخلاق الرديئة
- ١ - الفجور ٢٨
- ٢ - الشره ٣ - التبذل ٤ - السفه ٥ - الخرق ٢٩
- ٦ - العفة ٧ - العشق ٨ - القساوة ٩ - الغدر ٣٠
- ١٠ - الخيانة ١١ - إفشاء السر ١٢ - النية ٣١
- ١٣ - الكبر ١٤ - العبوس ١٥ - الكذب ٣٢
- ١٦ - الخبث ١٧ - الحقد ١٨ - البخل ١٩ - الجبن ٣٣
- ٢٠ - الحسد ٢١ - الجذع ٢٢ - صغر الهمة ٢٣ - الجور ٣٤
- ٣٥ ثالثًا : أخلاق تحتل أمرين
- ١ - حب الكرامة ٣٥
- ٢ - حب الزينة ٣٥
- ٣ - المجازاة على المدح ٣٦
- ٤ - الزهد ٣٧
- ٣٧ الفصل الثالث : « في وصف الطريقة إلى السمو بالأخلاق
- ٤١ الكلام على السكر
- ٤٢ الكلام على الغناء
- ٤٣ الكلام على التوسط في الطعام
- ٤٩ الفصل الرابع : في وصف الإنسان الجامع لحاسن الأخلاق
- ١ - التفقد لجميع معاييه ٤٩
- ٢ - القراءة والإحاطة ٥٠
- ٣ - الاقتصار في الشهوات ٥١
- ٤ - مفارقة الشهوات الرديئة وهجر اللذات ٥١
- ٥ - التعود على الكرم ٥٢

- ٦ - الزهد في المال ٥٣
- ٧ - حسن التصرف في المال ٥٣
- ٨ - ترك الفضب ٥٥
- ٩ - محبة الناس والتودد إليهم ٥٥
- ١٠ - حب الخير وإلفه ٥٧
- ١١ - ترك القبيح من الأعمال ظاهراً وباطناً ٥٨
- ١٢ - اجتناب العيوب بالكلية ٥٩
- ١٣ - كره التلق ٦٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠١١ / ٨٩



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : DWFA UN ٢٤٠٠٤

يصدر قريباً إن شاء الله :

مسند المقلين
من
الأفراء والسياتطين

إلى الفاسم تميم بن محمد الدشقي

الجلد عند
فقد الولد

للمحافظ
جلال الدين السيوطي

تحفة الزوار إلى
قبر النبي المختار

لابن حجر الهيتمي

الدر المنصور في
دفع البخار وفلاح الجوع

للمحافظ
عبد الرؤوف المناوي

دار الصحابة للنوازل

للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص : ٤٧٧ ب